الى الاساءة . ولذلك فاننا نرجو من القراء ان لا يسرعوا الى الاستنتاج ، فالرجل لا يلقي الكلام على عواهنه ، ونحن لا نقصد سوى ان نشير الى بعض معالم الكتاب ، آملين ان يقرأه من تهمه هذه التطورات التي مرت بالفكرة والمنطقة .

يرى المؤلف ان الحركات البارزة والاصيلة التي قامت في ديار الاسلام منذ ان بدأ الغرب يتصل بها، او تتصل هي به ، كانت اسلامية في جوهرها . فقد عنيت بقضايا الايمان وموقف الجماعة الاسلامية من الدول التي احتلت اراضيها اكثر من عنايتها بالامة او بالبلاد المحتلة . ويعالج هذه الناحية متلمساً خطوطها العامة في المواقف التي اتخذها المفكرون المسلمون من حضارة الغرب وآرائه وتعاليمه وتجاربه . وتبين له ، في بحثه ، ثلاثة مواقف لم تكن كلها متتابعة ولا متعاقبة . فقد كان بعضها ، على تباين في خصائصه ومعطياته، متوازياً خطوطاً، متقاطعاً مكاناً . والمواقف هي : الرفض القطعي مع العودة الى الماضي البعيد ومحاولة الاحياء على نحو ما قام به شاه ولي الله الهندي ، والشيخ تاج الدين السملي الذي جاور في مكة ، والوهابية ، وبعض السلفيين المتأخرين ؛ والموقف الذي يمثله السير سيد احمد خان في الهند ، وعبد القيوم الناصري في اواسط آسيا، والذي سماه المؤلف الموقف التعاوني؛ وثمة الموقف الليبرالي الذي يمثله الشيخ محمد عبده خير تمثيل ، والذي اراد ان يتسع الاسلام للحديث من العلم والتقنية دون ان يتخلى عن خصائصه الروحية ، والذي يعتبر التطور سداه ولحمته .

وثمة حركة اخرى يتحدث عنها المؤلف ، وهي الجامعة الاسلامية التي كان من ابرز الداعين اليها السيد جمال الدين الافغاني .

ويختم المؤلف كتابه بفصل عن الشرق الاوسط في الشؤون الدولية، مبيناً ، باختصار، الدور الذي قام به ، والعوامل التي جعلت منه عاملاً هاماً في هذه النواحي الدولية . ويشير الى الحرب الباردة القائمة بين المعسكرين اليوم واثرها في تطور النظرة الى الشرق الاوسط وتبدل نظرة الشرق الاوسط الى الدول الكبرى ، كما يعرض لقضية الاستقلال في اقطار المنطقة وما ترتب عليها من مواقف .

قرأنا هذا الكتاب وتمتعنا به وافدنا منه بعداً في النظرة وعمقاً في التحليل ، ونحسب ان غيرنا يفيد من الكتاب . ولكن هل خلا الكتاب من مجال للنقد ؟ لا ، ولن يخلو كتاب من مجال للنقد . والذي نود ان نذكره ان المؤلف غربي، وقد وضع هذا الكتاب للقارىء الغربي ، واذاً فقد كتبه بمعرفته وعقله وقلبه هو ، ولم يكتبه بعقلنا او بقلبنا . فاذا قرأنا الكتاب ووجدنا فيه ما لا يتفق مع كياننا الفكري او آمالنا العاطفية ، او ما لا يجاري وجهة نظرنا هنا او هناك ، فذلك امر طبيعي . لكن حسب المؤلف انه عرف ونظر وارتأى وكتب .

نقولا زيادة

في معركة الحضارة

بقلم قسطنطين زريق . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤

اني اترقب منذ ما ينيف على السنة كتاباً عن الحضارة للدكتور قسطنطين زريق . فالدكتور زريق من الرواد القلائل للفكر العالمي في العالم العربي . وهو من المفكرين العرب الواعين الذين يتعرضون للقضايا العربية العامة بنظرة انسانية شاملة، ويحللون ويبسطون القضايا الفكرية الكبرى

من الزاوية العربية الخاصة .

ولعلهم قلائل اولئك الذين يترقبون هذه المواضيع في اللغة العربية . ولكن على قلتهم نرى فيهم الخميرة الفعالة التي ستتسرى لتنمو بين مثقفي الغد . ومن هنا تكون الدراسات الحضارية من امثال « في معركة الحضارة » دراسات توجيه مسؤولة ويكون لمؤلفيها فضل الريادة للثقافة العربية المقبلة . وحين يكون للاقتباس الثقافي الحضاري مراحل تجتازها الامة لتصل فيما بعد بثقافتها الى الاسهام الفعلي في الحضارة ، فاني ارى في مثل هذه الآثار العالمية بنزعتها دلالة مرحلة تمر بها الثقافة العربية. ولعل المؤلف بتجربته الاجتماعية والثقافية، هو خير ممثل لهذه المرحلة ، اذ هو، كأستاذ جامعي معروف وكمثقف مرموق في العالم العربي ، يجب ان يكون من اشد الناس حساسية للقابليات الفكرية الجديدة المتفتحة امامه فيناحية، وللعطاءات الفكرية الكثيرة الناضجة في الناحية الاخرى .

حجم الكتاب يزيد على اربعمائة صفحة من القطع الكبير . وهو يتألف من ثلاثة عشر فصلا تبحث جميعها في ماهية الحضارة وحركيتها وتفاعلها ومقاييسها . وتطرح للبحث جميع القضايا تقريباً التي يتعرض لها الباحثون في هذا الحقل حتى الآن. واذ نجد من الصعوبة مناقشة افكار الكتاب تفصيلا في عجالة قصيرة كهذه ، نكتفي بالتعرض للبناء الذاتي الذي ينتظمه والتساؤل عن الفعالية التي يمكنها ان تتأتى عنه .

يعرف المؤلف غايته من الدراسة في مطلع الفصل الاول بقوله : « استجلاء مفهوم الحضارة ومحاولة ادراك جوهرها ومقوماتها ، والتغيرات التي تطرأ عليها وتبين الاثر الذي يحدثه هذا الادراك والاستجلاء في سعينا الحاضر ، وفي وعينا لماضينا واعدادنا لمستقبلنا » .

انها غاية هامة حقاً وضرورية لكل شعب يطمح للبناء ، ولكل مفكر يريد ان يؤدي رسالته نحو امته . ولكن ما يبدو هو ان الدكتور زريق لم ينطلق من زاوية شخصية واضحة لاستجلاء هذا المفهوم وتوضيحه للقارىء من خلال نظرة عامة تربط اركانه ومقوماته. وهكذا لا نجد في الكتاب مرتكزاً اولياً للقارىء يستند اليه ليرافق المؤلف في آرائه المختلفة الموزعة في ثنايا الكتاب ، بل بدل الانطلاق لجلاء قوام الحضارة ، بربط مظاهره وتشكلاته بفكرة ما ، نجد الحاحاً يتردد كثيراً عن ضرورة تعريف « الحضارة » . كما في قوله في الصفحة ١٤ : « من المفاهيم الاساسية التي نجد من الضروري استجلاءها في هذا الدور الحاسم من تاريخنا ومن تاريخ البشرية ، مفهوم الحضارة » . وفي الصفحة ١٧ : « نجدنا مدفوعين الى ان نؤكد ضرورة النظر الحضاري الشامل والتفهم الحضاري النافذ لحسن ادراك اية ناحية من نواحي حياتنا الحالية او السابقة» . وفي الصفحة ٢٧ : « لا شك في ان واجبنا الاول هو ان نعرف الحضارة وان ننفذ من خلال هذا التعريف الى ماهيتها » . وفي غير هذه الصفحات توكيد يتكرر على ضرورة هذا التعريف والتحديد . وعذر الكاتب في ذلك ، كما ارى ، هو انه يكتب فصوله في فترات متباعدة نظراً لعدم تفرغه للكتابة ، فيكرر افكاره .

ثم ينطلق الدكتور زريق في بحث طويل عن معنى كلمة الحضارة في اللغة العربية ، وعند ابن خلدون ، ثم في اللغات الغربية وكيف انتقلت هذه اللفظة من لغة الى لغة . وكم اتمنى لو كان هذا التعريف قصيراً وفي هامش الكتاب وليس في متنه. خاصة وهو يشير في الحاشية الى معاجم وكتب تشرح هذه الكلمة . واتمنى ايضاً لو ان المؤلف اعطانا بوضوح وجرأة اكثر تحديده الخاص للحضارة دون ان يحيلنا الى الدلالات الكثيرة لهذه الكلمة والتداخل الذي يحدث بين معانيها ، كما ورد ذلك في الصفحتين ٣٩ و ٤٠ . كما انه يحاول التمييز بين «التحضر» و «الحضارة» دون تعيين المجتمعات التي تطلق عليها كلمة الحضارة ، كما فعل غيره من باحثي الغرب . ولذلك لم يظهر هذا التمييز واضحاً

كما اراده ، ولم تكن هناك ضرورة له .

ويكرر الدكتور زريق تشديده كثيراً على الواقع كقوله (وهو التقاط عابر) في الصفحة ٣٣٤: « لم نتبع الاسلوب السوسيولوجي الانثربولوجي الذي يكتفي بالوصف والتحليل والتعليل ويتجنب التقييم والتطبيق ، وانما عمدنا اليها (اي الحضارة) بدافع من الواقع — واقعنا وواقع الإنسانية » . وفي الصفحة ٣٥٣ : « لقد ذكرنا في مطلع هذه الدراسة ، ورددنا مراراً في سياقها ، اننا لا نبغي منها ان تكون مجردة منفصلة عن تيارات الواقع والقوى الفاعلة فيه » . ومثل هذه اللفتات كثيرة كثيرة حول جميع الافكار الهامة في الكتاب ، حتى انها تجعله ينوء تحت ثقل من الوعود والارشادات للدراسة . ويبدو ان اقلال الدكتور زريق من ايراد الشواهد والقرائن الاجتماعية والتاريخية يجعل الفكرة الواقعية التي قصدها ، كما يجعل غيرها من الافكار ، غامضة امام القارىء .

ولعل امانة المؤلف ووعيه لرسالته هي جعلته يكتب الفصل الحادي عشر بعنوان « تلخيص وتركيز » ، بعد ان لاحظ تخلخل البناء الفني في افكار الكتاب وعدم وضوح هذه الافكار . وفي هذا الفصل ، وهو قبل الفصلين الاخيرين ، يورد قوله في الحضارة في الصفحة ٣٣٢ : « اما نحن فنقول اولاً بتعقد الحضارة وتشابكها ، وتداخل عناصرها وتفاعل عواملها . ونعتقد ان الحضارة هي نتاج مركب لفعل جميع العوامل التي تكيفها من الداخل او تؤثر بها من الخارج ، وان العوامل المختلفة تتباين شدة واثراً بتباين الازمنة والاوضاع». وهذه القولة ، التي تتسم بروح المدرس المحايد ، تعبر عن رأي الدكتور زريق في الحضارة كما بدا في كامل فصول الكتاب ، وهو رأي لا شخصية له كما يظهر .

وابرز ما يلاحظه القارىء هو التواضع وتكرار عبارات تنطق به . مثل « ان علمنا الخاص لا يؤهلنا لاتخاذ موقف نهائي فاصل في هذه القضية » (الصفحة ١٩٧) ، و « قصور باعنا في الموضوع نظراً لتعقده » (الصفحة ٢٤) ، و : « هذا في نظرنا يتطلب من الاطلاع التأريخي والدراسة الاجتماعية والتعليل الفلسفي ما لا قبل لنا به » (الصفحة ١٣٦) . وهذا الموقف نفسه يتخذه الدكتور زريق ركيزة له في عامة الكتاب امام القضايا الفكرية التي يتعرض لها الفكر العالمي المعاصر بجرأة واهتمام، ما عدا رأياً واحداً لاحظته، بالتقاط عابر ايضاً ، هو قوله في خلاف الباحثين حول وحدة الحضارة او تعدد الحضارات في الصفحة ٦٨ : «سبيلنا في الاجابة عن هذا السؤال سبيل بسيط واضح يصح في نظرنا ان يكون منطلقاً لبحث هذه القضية وللفصل فيها » .

وهذا تواضع يحمد عليه المؤلف اجتماعياً لولا انه تردد واصطبغ به الكتاب ، مما اراه يشل طموح القارىء العربي ويجعله يشك بفائدة ما يقرأ واهميته. كما ان استعمال الموقف الوسطي او المتردد ذي الوجوه العديدة، والابتعاد عن اعطاء فكرة ذاتية في موضوع من المواضيع التي يتطرق لها الكاتب، يجعل القارىء يشعر بالخيبة واليأس من اكتشاف الجديد الذي يتطلع له دائماً في كل عمل فكري او فني . هذا مع العلم بانا في العالم العربي بحاجة للجرأة الفكرية اكثر من حاجتنا للفكر نفسه ، الذي اضحى طريق الاطلاع عليه عاماً لكل الناس بعد ان عمت اسباب المواصلات وسرعتها بين جميع الامم والشعوب وانتشرت الافكار مع انتشار الطباعة واتساع دور النشر ومعرفة اللغات الغربية.

وهذا التردد يظهر جلياً ليس فقط بين الافكار المعروضة ، بل تلمسه في مفردات الكلمات لدى المؤلف ، التي تتعاقب احياناً بين المفرد والجمع او الجمع والمفرد لمحاولة تدقيق المعنى ، مثل تكرار : القدرات او القدرة ، القوة او القوى ، اللغة او اللغات ، النظام او الانظمة ، العامل او العوامل.

ومما يلاحظه القارىء ايضاً تغلغل النفس التدريسي في فصول الكتاب والاكثار من التوصيات،

وايراد تلخيص عفوي او مقصود في نهاية اغلب الفصول ، او التقاط كلمة من الكلمات والسير معها لتقصي معانيها في اللغات الاخرى ، او شرح سبب اتخاذه لفظة الجمع دون المفرد او المفرد دون الجمع . ومثل هذه الملاحظات هي من خصائص الهوامش لا المتن ، كما ارجح .

ويبدو ان الدكتور زريق استوحى دراسته هذه من الدراسات الحضارية المماثلة لها ، وليس من الحقل الاصيل الذي استوحت منه هذه الدراسات بناءها : هذا الحقل هو التاريخ ووقائعه وتطوراته. ومن هنا جاءت دون وجه واضح بارز خاص بها ، ولكنها على اية حال دراسة محايدة متزنة ، قد تثير الكتاب العرب الى الموضوع كما يرغب في ذلك المؤلف ، وان لم تثر القارىء وتضف معلومات خاصة الى معلوماته . وهي تحتفظ للدكتور زريق بمركزه بين المثقفين العرب الاول الذين يدركون اهمية عالمية الفكر وانسانية القضايا القومية وارتباط مصير الفرد بالمجتمع ومصير اي مجتمع بمصائر المجتمعات الاخرى . فتحيتي للدكتور زريق واكباري لجهوده .

ي. ح.

مُشكلة الحب

بقلم زكريا ابراهيم . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٣

الحب ، في اي بحث فلسفي ، هل يمكن ان يوضع في اطار تعريف ما ؟ هذا الذي به ، من اسطورة كلمة المعرفة التي رفت على شفة انسان ما ، قد خلق الكون، وبه يدخل الانسان ملكوت الله.

هذا الذي تمرد على العرق واللون والطبقة لكي يجعل المستحيل ممكناً فيلتقي الانسان بالانسان ، ويتغنى به بالحرف واللون ويجسده في عروق الحجر ويجعل منه ارفع قيمة .

كيف يمكن للحب الذي هو ابسط كلمة تخاطب بين البشر ان يصبح مشكلة الانسان ؟ هل لانه الكائن الوحيد الذي يرفض ان يكون ، كما هو في تعريف كامو ؟ هل هو مشكلة الانسان الحديث الذي بسبب من رفضه لصيرورته يرفض كل قيمة اخرى تبعاً لذلك ؟

ام ان المجتمع العلمي الحديث الذي فرض على الانسان ان يكون محللاً لكل قيمة، وبالتالي عقلنة كل شيء حتى عواطفه نفسها ، هو الذي جعل الحب مشكلة على الصعيد نفسه الذي ينظر الى وجوده كمشكلة كذلك ؟

وهل يمكن بالتالي ان يكون الحب هو خلاص الانسان الوحيد ؟ وهل يتحتم علينا عندئذ ان نمد الحب الى ابعاد تتخطى الجذب الغريزي بين ذكر وانثى وتتجاوز بذلك فلسفة فرويد القائمة على الجنس ، لكي يكون السقف الحقيقي لبيت العائلة الانسانية بأسرها ؟ وعندئذ نواجه الحب كمشكلة.

يعتقد اريك فروم ، عالم النفس الامريكي المعاصر ، ان الانسان الحديث يعاني مشكلة « الاقتلاع » التي انتهت به الى البؤس والتعاسة والتشرد داخل نفسه، وان الاسباب الرئيسية لهذا الواقع المدمر تكمن في انصراف الانسان عن الدين، وان الرد الوحيد على هذا التحدي هو الرجوع الى القيم الدينية لكي يتأتى للانسان خلاصه عن طريق الايمان .

ولهذا نجد اريك فروم ، في كتبه العديدة « تحليل الدين » و « الانسان من اجل نفسه » و « فن الحب »، يركز على القيم الروحية في الدين، حتى ان معظم الحالات التي يستشهد بها منتزعة من